

الفصل الرابع عشر عمر الخيام وأدب التمرد

لم يكن الخيام ملحداً أو كافراً أو لا أدرياً- أعوذ بالله- ولكن كان له نمط شخصية سيدنا إبراهيم عليه السلام - يريد أن يعرف، ومن تحصيل العاصل أن نحكى قصة هذا النبي الذي كان أمة وحده، نمط شخصيته هو نمط الباحث عن الحق والحقيقة، والحائر الذي يتطلع إلى السماء في دهشة وتأمل وتفكر وتدبّر- وحاله كحال حيّ بن يقظان لابن طفيل، نشأ لا يعرف إنسياً، ولا يدري له رباً، ولكنه اعتاد أن يتصفح السماء والكواكب وحركاتها، وجميع الأجسام وضروب الأفلاك، وتحصل له الإدراك أن الكون كله كمشخص واحد في الحقيقة، ويحتاج إلى فاعل مختار، وتسأل هل هو حدّث بعد أن لم يكن، وخرج إلى الوجود بعد العدم؟ أو هو كان موجوداً فيما سلف ولم يسبقه العدم؟ وأسئلة أخرى كثيرة، ومقدمات واستنتاجات، إلى أن انتهى إلى إثبات وجود الله، وإثبات صفاته.

هكذا كان سيدنا إبراهيم، وهكذا كان عمر الخيام!

ولنراجع رسائله الفلسفية لنعرف أن ما انتهينا إليه هو الحق، ولا تثريب علينا فيه. والخيام في كتابه نوروزنامه (كتاب النيروز) يبدأه فيقول: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله والشكر لله جلّ جلاله، خالق الكون، ومالك الأرض والزمان، ورازق العباد، وعالم السر والجهر، ويقول: يعون الله وحسن توفيقه..

وفي رسالة الجهر والمقابلة يقول - والعاوية للمتقين، والصلاة على الأنبياء، وخصوصاً على محمد وآله الطاهرين أجمعين، والله المستعان وإليه المفزع.

وفي رسالة الكون والتكليف يتحدث عن: الله الباري الحيّ القيوم، الحق الأول، واجب الوجود الذي عنه وجود كل موجود، جلّ جلاله، وتقدّست أسماؤه، ولا إله غيره، الذي فاضت الموجودات عنه، منتظمة في سلسلة الترتيب، التي افترضتها الحكمة الحقّة.

ذلك إيمان الخيام إذن- لا شك فيه، وإيمان درجات، وسيدنا إبراهيم طلب أن يريه الله كيف يحي الموتى- قال أو لم تؤمن؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي (البقرة ٢٥٩)، فلما رأى بصره اطمأن القلب مستقر الإيمان.

والخيام لم ير فمن له يُطمئن قلبه؟

وعقله كخليفة النحل تتزاحم عليه الأسئلة والشكوك فمن له يُثبّت إيمانه؟

ولعله يكون كالذي مرّ على القرية الخاوية على عروشها، وقال أنى يحي هذه الله بعد

موتها؟ ولقد رأى العظام كيف ينشزها الحق ثم يكسوها لحماً، وتبين له فأنم (البقرة ٢٥٩).
فكيف السبيل إلى ذات الإيمان؟

الأسئلة هي نفس الأسئلة، والإلحاح على المعرفة هو نفسه مع هؤلاء الباحثين عن الحق والحقيقة، وهم نسل آدم، وفيهم عن أبيهم - أراد ان يعرف فعمسى وزل، وورثوا عنه نفس الداء.

والخيام ابن أبيه، ويريد أن يعرف - وهذا هو جُرمه.
ما هو العدم؟ ما هذا الموت؟ لماذا القضاء والقدر؟ لماذا نجىء اضطراراً ونرحل اضطراراً؟
ولا يجد الجواب.

ويهرب من اليأس إلى الشِعْر واجتلاء الجمال، لعله يجد الخلاص، ولكن لا خلاص.
وتزيد الذنوب حتى لتكون كالجبال- فلولا يظلمه الله على السر؟ لماذا الجحيم؟
ويطالع الموت بإمعان ويؤثر لأتناً ندفن في التراب - ذل وهوان واحتقار وحطة وامتهان!
فكيف نرضى به؟ وكيف رضى به الفلاسفة والفقهاء الذين علمونا؟ ويعلم الله أننا لم نتعلم
منهم إلا الضلال!

ويسأل نفسه في غضب : يانفس! كيف ترضين بالندية داراً، تشقين فيها خربة واعتقالاً
للأشياء؟ مَرَقَى اللحم والعظم إذن وعودى لعروش العلى بدار الخلود!
وفلسف الوجود فيشبه الأرض برقمة الشطرنج، والأنام بالبياق، والقضاء يلعب بنا
ويلقى بالواحد تلوا الآخر فى سلّة الفناء.

ويخلُص إلى أن كل شئ مسطور منذ الأزل وإلى الأبد، ولا نملك إبدال سطر بسطر، ولا
حرف بحرف، وكل ما ندركه من هذا التيه أننا نجهل ونحن أطفال، ونلُعد ونحن شيوخ،
بحسب ما هو مكتوب ومقدور- فلماذا يكون الحساب إذن؟

ويعلن لا فائدة من السؤال، وليس أمامنا إلا التسليم، والتوبة، وطلب المغفرة، واستجداء
الرحمة، لعله يتوب علينا ويفرلنا ويرحمنا، وهو التواب الغفار والرحمن الرحيم!

مفتاح شخصية الخيام إذن هو حب المعرفة، وداؤه العضال العمود، لأنه يريد أن يعرف،
فمن لم يعرف يلحقه البوار ويصيبه القلق، ويرزح عليه الهم، وينزى به الخوف.
وللمتعدد أدب، والمتعدون أنواع، وتمرد الخيام من النوع الميتافيزيقى الذى يحكى عنه
ألبير كامى (أنظر ترجمتنا للإنسان المتعدد). وهو فى حالة الخيام كما نرى تمرد المؤمن

الذى يعرف الإيمان طريقه إلى قلبه فيريد أن يعرفه بعقله، ويبدأ يناقش، ويجد صوته فى حضرة الله، ويتجرأ فيسأله ويطلب إجابات شافية - يطلب أن «يرى» كالنبي إبراهيم، أو كالذى مرّ على القرية الخاوية - ويطلب أن يستقر عقله فيطمأن قلبه.

والتمرّد ليس عصياناً، ولا إلهاداً، ولا كفراً، ولا يصدر عن فراخ، وإنما صدره عن قيمة، لأن الإنسان المتمرد لم يعد يرى نفسه تابعاً ولا مقلداً، ويريد لوجوده وإيمانه أن يكون أصيلاً. واحترامه لنفسه هو الذى يدفعه إلى طلب المعرفة، وبالمعرفة يزيد وعيه فيكسر قيود العبودية ويطلب الحرية - أن يكون حراً فيؤمن بالله كإنسان حر لم تستعبده السوابق، ولا كان تابعاً لتفكير غيره، ولا مؤمناً عن تقليد.

والمتمرد الميتافيزيقى فى أول الأمر يريد أن يغيّر الأمور إلى ما ينبغى أن يكون عليه الأفضل والمنطقى والمعقول، ثم يستشعر الحرية فى نفسه، ويعطيه وقوفه على قدميه وتخليه عن الركوع، ثقة أكبر فيتغير مطلوبه، ويريد أن تكون الأمور على ما يراها، وما يريد أن تكون عليه.

وهذه الخطوات تضمّنها تمرد الخيام، فكان شعوره أولاً بأنه صغير مقهور، ثم رفضه ثانياً لوضعه العبودى الذى يرين عليه، والتسليم الأعمى الذى لا مبرر له، ثم إعلانه العصيان ثالثاً، وانبعاته قائماً يواجه السماء ويناقش ويطلب أن يعرف، وأن تتغير الأوضاع، وأن يُعاد تشكيل الوجود للأفضل، فيتوفر الرزق للجميع، ولا يمرضون، ولا يجهلون، ولا يموتون، ولا يكون هناك قضاء ولا قدر، ويعيش الكل فى نعيم مقيم.

وتمرد الخيام الميتافيزيقى نوع من الاحتجاج يقوم به إنسان ضد واقع مفروض على كل الناس.

والمتمرد الميتافيزيقى يحتج على وضعية الإنسان فى الكون، ويتوجه احتجاجه ضد عذابات فى الحياة، والمظالم والشور والاثام والأمراض والجهل والفقير والموت. والمتمرد الميتافيزيقى كما يقول كامى لا ينكر وجود الله، ولكنه يثبته، ويطلب إليه تغيير الأوضاع، وما يترسمه للتغيير هو يوتوبيا أو أرض أحلام من صنعه هو، ترتفع فيها الوضعية القائمة، وتحل محلها أخرى أكثر عدلاً وأجلب للسعادة.

والمتمرد الميتافيزيقى أنواع أيضاً، والنوع الذى نحن بصدده - نوع الخيام - هو النوع الفنان المبدع الذى ينفعل بالتمرد، ويعبر بأدبه عما يجيش فى صدره من وجدانات وما يعتمل فى عقله من أفكار - وجدانات وأفكار تمرد، فيها عصيان ورفض للواقع. والمتمرد الميتافيزيقى

الفنان كالخيام يريد تغيير الواقع للأجمل ، ولكنه لا يفغره بيديه، ولا بالقوة، وإنما يفغره بالفن، بأن يتصور الدنيا الجديدة ويطرحها خيالات وعبارات فى أدبه.

والمتمرد الميتافيزيقى من أجل ذلك شاعر، وسيجد نفسه يقول الشعر، يؤكد به قبح وبشاعة العالم ، ويخلق به الجمال و يتحدى الواقع ويجادله بالشعر، ويتعالى بالشعر عليه.

ويبدو أن الألب العظيم والرفيع هو ألب المتمرد الذى يخلق به الفنان عالما آخر أسمى من هذا العالم، وإن كانت أقدامه مفروسة فى أرضه، إلا أن هامته مُشرعة ومرفوعة صوب السماء....

وهكذا فيما يبدو كان ألب الخيام!
